التزوج بالاجنبيات

منافعهُ ومضارهُ من الوجهة البيولوجية والاجتماعية

(١)

اذا وضعت بعض الحيوانات الاولى (البروتوزى) في مرق اللحم وراقبت نموها مدة من الزمن وجدتها في بادىء الامر تتكاثر بسرعة الى ان يبلغ تكاثرها حدهُ الاقصى ثم تبتدئُ في دور التناقص فتقل قوة انقسام افرادها على التدريج حتى تقف عن الانقسام ثم تبتدئُ تتحلل حتى تموت كلها ولكنك اذا اضفت اليها عدداً من الحيوانات التي من نوعها حالما تبتدئُ ان تضمحل تجدها تتحد مع هذه الحيوانات الاجنبية بقوة شديدة ثم تبتدئُ تتكاثر مرة اخرى بنفس القوة الاولى . اي ان الدم الاجنبي جدد فيها قوة التناسل بعد ان مالت الى الاضمحلال

مثل آخر من الطبيعة : خذ زهرة ما وتأمل فيها تجد ان اوراقها الملونة تلتف حول قضبان دقيقة جداً على رؤوسها قمم صغيرة صفراء وهي تحتوي على الخلايا الذكرية المقحة وفي وسط هذه القضبان قضيب اثخن من الباقي ينتهي برأس كرأس الدبوس وفيهِ مادة لزجة وهو القضيب الذي يؤدي الى البويضات الانثوية . وعليهِ تحتوي هذه الزهرة على المادتين اللازمتين للتلقيح وهما الخلايا الذكرية والبويضات الانثوية ويمكنها ان تلقح نفسها ولكنها لا تفعل ذلك الاَّ عند الضرورة الشديدة . فانها تنتظر اولاً ان تلقحها الريح من شجرة اخرى او ان تنقل اليها نحلة او احدى الحشرات الاخرى شيئاً من الخلايا الذكرية العائدة بها من شجرة بعيدة عنها واذا لم يتيسر ذلك انتظرت عسى ان يصل اليها شيء من الخلايا الذكرية من نفس الشجرة التي هي جزء منها ولكن من زهرة اخرى . واذا لم يتيسر ذلك ايضاً لم يبقَ لها بدٌّ من ان تكتفي بما لديها وتلقح نفسها بنفسها اي بواسطة اخلايا الذكرية التي فيها . ولكنها لا تفعل ذلك الاَّ بعد الانتظار الطويل وبعد ان يولي زمن صباها وتبتدئُ ان تشيخ . ولو تيسر للجزء الانثوي من الزهرة خلايا ذكرية من هذه الثلاثة الانواع وامكنها ان تختار منها لاختارت دائماً الخلايا الآتية من الشجرة الاجنبية وكانت الثمرة الناتجة من هذا الامتزاج اجود من التي تنتج من المزيجين الآخرين

هذان مثلان ذكرتهما تسهيلاً لفهم قانونين مهمين من قوانين علم الحياة (البيولوجيا) يسريان على جميع الاحياء من المكروب الى الانسان . اولهما انهُ لا بد من دم اجنبي لحفظ النوع فكما ان المكروبات تزيد الى حد ما ثم تموت اذا لم يضف اليها كمية من الخارج من

نفس نوعها كذلك تنقرض الاسرة من البشر التي تتزاوج افرادها مدة طويلة بدون ان تمتزج بدم غريب . وذلك ببدأ تدريجياً فتظهر اولاً على افراد هذه الاسرة علامات المرض (Degeneration) فيكثر فيها عصبيو المزاج والمدمنون الخمر وذوو الاخلاق الغريبة . ثم ينتهي الامر بان اطفالها تموت في السنين الاولى من عمرها كانها شاخت لان ليس في خلايا اجسامهم قوة الانقسام والتكاثر فيقف نمو الطفل في الاشهر او السنين الاولى ثم يموت كما يموت الشيخ . وامثال هذه العائلات المسكينة ليس بقليل في بلاد يحل بل يحسن فيها التزاوج بين ابناء العم واخوال

ولكن الامة التي ينحصر تزاوجها فيها ابعد عن الانقراض من العائلة لان دائرة التزاوج فيها ارسع منها في العائلة . الاَّ انهُ بهذه الواسطة تزداد مميزات الامة عن غيرها وضوحاً سواء كانت هذه المميزات حسنة ام رديئة . فالاسرائيليون معروفون مثلاً بالانف الاقنى ويعسر عليك ان ترى اسرائيلياً ليست فيهِ هذه الخاصة . وقد تتعدى الخلة الحسنة عند تمكنها من امة حدَّ الاعتدال فتسبب لها ضرراً او مذمة . فالكرم في حد ذاتهِ ممدوح ولكنهُ قد تمكن من العربي الى حد انهُ كان يذبح لضيفهِ ناقتهُ التي كان يرتزق منها هو وعيالهُ اذا لم يكن لديهِ غيرها . ولقد بلغت ملكة التروي والنظر في العواقب بالقبطي مثلاً حتى جعلتهُ لا يقدم على اي عمل عظيم ما دام فيهِ شيءٌ من المجازفة . ووصل بهِ كبح جماح النفس وكظم الغيظ الى حد احتمال الاهانة بدون طلب الاقتصاص لنفسهِ من مهينهِ وهو بعد ذلك كريم اخلاق وغيرهُ يعدهُ جبناً

هذا ما يقال في الصفات الحسنة اذا تمكنت من امة بالتوارث الى حد التطرُّف اما الصفات الرديئة فلا يمكنها اذا تمكنت الاَّ ان تتأصل حتى تتحول من رديئة الى اردأ . ومن اراد ان يضرب لذلك امثالاً محسوسة لا يتعذر عليهِ ذلك . ومن البديهي والحال هذه ان امتزاج الامم بعضها ببعض يخفف من وطأة حسناتها وسيئاتها في وقت واحد وينتج مزيجاً معتدلاً والطبيعة نفسها تسعى الى مزج الشعوب بعضها ببعض

فالمثل الثاني وهو مثل الزهرة التي تختار ابعد الخلايا الذكرية لتلقح بهِ نفسها كما ان الخلايا الذكرية ايضاً تنضم الى البويضة الاجنبية بقابلية اقوى من التي انضمت بها الى بويضة من نفس الشجرة أو الزهرة — هذا المثل يفسر لنا قانوناً آخر يسري على كل الاحياء وهو ان الفرد يختار لتناسل فرداً آخر ذا صفات مكملة لصفاتهِ الذاتية . فالرجل القوي يجذبهُ ضعف المرأة والمرأة القوية الارادة تميل الى التزوج من رجل

يمكنه ان تتسلط عليه . واظن انني لا استطيع ان اضرب لذلك مثلاً اكثر اقناعاً من ان اذكر القارىء بمقدار شغف المصريين وهم شعب اسمر ببياض البشرة فعامتهم لا يفرقون بين البياض والخمال بل يحذون الاول مقياساً للثاني . وكنا نعرف شغف المصريين بالعيون الزرقاء والاوربيين بالعيون السوداء . ان هذه العوامل التي تجعل الشخص يميل الى التزوج بشخص آخر ذي صفات تخالف صفاته هي نفس العوامل التي تنفر الاخ من التزوج باخته وتسبب عدم ميله الى ابنة عمه . واذا بحثت عن اسباب التزاوج بين اولاد العم وجدت ان الحامل على اكثرها فوائد مادية لا غير

وكما ان الثمرة الناتجة عن تلقيح زهرة بخلايا ذكرية من شجرة غريبة تكون احسن من الثمرة الناتجة من تلقيح الزهرة بخلايا ذكرية من نفس الشجرة او من نفس الزهرة كذلك يكون النسل الناتج من ابوين مختلفين في الجنسية اقوى على مقاومة عوامل الاضمحلال ومزوداً بقوة تناسلية تفوق ما لوالديه منها . فقد اظهر احصاء بوس Boas في امريكا الشمالية مثلاً ان متوسط المواليد من الهنود الامريكيين ٦ اطفال للمرأة المتزوجة ومتوسط ما تلدهُ المرأة الخلاسية[1] التي من دم هندي واوربي ثمانية اطفال . وفي بارجواي تلد المرأة الخلاسية اكثر من الهندية او الاوربية التي تعيش في نفس البلاد . ويقول Le Vaillant ان متوسط ما تلدهُ المرأة من الجنس الهتنوتي ثلاثة او اربعة اطفال ولكنهم باختلاطهم مع السيد يصيح هذا العدد ثلاثة اضعاف ويبلغ اكثر من ذلك عند تزاوجهم مع البيض . وقد احصى E. Fischer متوسط ما تلدهُ المرأة في مستعمرة المانيا الواقعة في جنوب افريقيا الشرقية فوجدهُ ثمانية اطفال . والشعب الساكن في هذه البلاد وهو خليط نقي من الهتنوت والبويريين من الجيل الرابع الى السابع اي انهُ من حين ان دخل البويريلاد الهتنوت واختلطوا باهلها وكونوا هذا الشعب لم يتزاوج البيض مع هذا الشعب مرة اخرى . وقد توالد هذا الشعب من اربع الى سبع مرات ومع ذلك لا تزال قوة التناسل فيهِ اكثر من الشعب البويري في افريقيا الجنوبية الانكليزية الذي متوسط ما تلد المرأة منهُ ٣,٦ الطفل[2]

هذا شيء يثبت لنا ان الطبيعة ميالة الى مزج الشعوب بغض النظر عن احوالنا الاجتماعية ومآربنا السياسية او المادية . الاَّ ان هنالك عقبات كبيرة لا يمكن اغفالها اذا نظرنا الى الامور

(١) الخلاسي المولد بين ابوين ابيض واسود

(٢) Das Weib in der Natur und Völkerkunde Dr. Ploss & Dr. Bartels.

كما هي من وجهتها العملية. فقد اصبح اهم اركان مدنية عصرنا الحالي تكوين عائلة لاجل التناسل. والاساس التي تبنى عليها العائلة هو السلام الداخلي الذي يستحيل دوامهُ اذا لم يكن هناك تفاهم تام بين الزوجين حتى يستطيعا ان يديرا حركة مملكتهما الصغيرة ومشاركة احدهما للآخر في السراء والضراء وحتى يجد كل منهما لنفسهِ عزاء في الآخر عند المحنة. هذا التفاهم يقوي الانسان على احتمال نكران الذات الذي يثبتهُ كل رجل او امرأة بتنازلهِ عن حريتهِ لذاتهِ ومشاركتهِ لقرينتهِ طول حياتهِ وتضحية كل شيء في سبيل اسعاد هذا القرين وغيرهِ من الاشخاص الذين يوجدهم هذا الاتحاد في حيز الوجود. وبدون هذا التفاهم يعيش الزوجان جنباً الى جنب وهما غريبان الواحد عن الآخر. ولما كان لكل شعب اخلاق وعادات تختص به دون سواهُ ويصعب على الفرد التخلي عما ربي عليهِ واعتياد عادات غريبة عنهُ ربما كان الى ذلك الحين يحتقرها كان من الصعب جداً ايجاد التفاهم بين زوجين من جنسين مختلفين. وكثيراً ما كانت صعوبة التفاهم هذه الصخرة التي تتحطم عليها سفينة السلام التي تنقل العائلة في بحر الحياة فان شعلة النار المقدسة التي تتقد في صدر الصبا قلما تقوى على عواصف الخريف وغيومهِ المظلمة. وما اطول الحياة واقصر ربيعها

الشرق شرق والغرب غرب والبحر الذي تطوفهُ الشمس بينهما يستغرقها نهاراً كاملاً. للغربيين اخلاق ولنا اخلاق فمن اين لنا ان ننظر الى الحياة بنفس المنظار الذي ينظرون هم اليها بهِ ما دامت وسائل الاختلاط بيننا وبينهم معدومة بالمرة سواء كان السبب في ذلك تجنبهم او جعلنا من بيوتنا حصوناً لا يتخطاها اجنبي حتى اصبح الطريق الوحيد لدرس اخلاقهم الذهاب الى بلادهم والعيش بينهم مما لا يتيسر لجميع. ويؤلمني ان اسطر هذه الحقيقة المحزنة وهي ان العدد الاوفر من شبابنا الذين يذهبون الى اوربا يرجعون منها وهم لا يعرفون عن الروح الاوربية سوى ما يرونهُ من حركة شوارعها وملاهيها. وانا لا اقصد بذلك لفيف المصطافين الذين يجمعون عرق الفلاح المصري بالنقطة ليروحوا بهِ شوارع باريس بل اقصد معشر الطلبة الذين يذهبون لاستقاء العلوم من ينبوعها. وانا لا الومهم لعدم ادراكهم للروح الاوربية لان المدة التي يقضونها هناك اقصر من ان تكون كافية لدرس اخلاق شعب غريب ولانهم يقضون اكثر اوقات الفراغ معاً فقلما يختلطون بافراد الامة وعائلاتها التي يعيشون بينها. فاني اتذكر انني لم ابتدىء ان اشعر بان للامة التي كنت اعيش بينها هناك حياة روحية لم اكن ادركها الى ذلك الحين الا بعد ان مضيت بينهم اربعة اعوام وانا لا اعرف كلمة من لغتهم فتعلمتها من افواههم كما يتعلمها الطفل ومضيتها

بينهم ثم اختلط فيها بمصري سوى مدة ستة اسابيع مضيتها بمصر . وبعد ان بدأت افهم شيئاً عن الزوج الاوربية تضح لي اني عشت طول هذه المدة ونظري اقصر من ان يرى الزوج التي تقود اوربا الى الامام . قلت اني لا الوم شبابنا الذي قضوا بضع سنوات في اوربا ولم يفهموا اهلها ولكني الومهم لانهم يدّعون علم ما ليس لهم به علم ويصفون اوربا ليس كما هي بل كما استطاعوا ان يدركوها

وهذه كلها وان كانت خرجت بي عن موضوعنا الاّ اني لم اقالك ذكرها لابيّن البون الشاسع الذي يفرق الشعوب بعضها عن بعض من الوجهة الاخلاقية واوضح شيئاً من صعوبة التفاهم بين افرادها . ورأيي في ذلك الموضوع من رأي الاستاذ بلوبلز استاذي المحترم في علم البسيكولوجيا وهو ان التزاوج بين الاجانب لا يؤدي الى السلام العائلي الاّ تحت شروط مخصوصة يتقدم فيها التفاهم التام على الميل الشخصي . فاني احذّر لفيف الشبان الاغنياء الذين يذهبون الى اوربا لاجل الاصطياف فيها من الاقدام على زواج عاجل واحذر لفيف الطلبة الذين يرحلون لتلقي العلوم من ان يضعوا كفهم في اول كف ناعم يمتد اليهم وفوق كل ذلك انبّه الشاب المصري الذي يريد ان يتزوج باجنبية مولودة او متربية في مصر خلقاً منه انها اقرب الى فهم اخلاق البلاد من غيرها الى ان هذه الاجنبية ربيت على ثدي واحدة رضعته من ثدي امها وهو الازدراء بالمصري . وليس هنا موضع البحث في احقية هذه التربية او عدمها

هذا ما يقال على وجه عام من جهة ضرورة وصعوبة تفاهم الزوجين المختلفي الجنسية ولكنه لا يجوز تطبيق ذلك على كل حالة خصوصية فكم من مرة صح فيها قول القائل اني فرأى فاحب وكم من مرة ذابت فيها كل هذه الصعوبات امام نار حب حار طاهر يدفع بكل قوة الى الامتزاج كما يذوب الشمع امام النار فالتهم قلبان آتيان من اقاصي الارض تحمساً بدين على ما هما عليه من اختلاف المواطن والمذاهب . ولعل في ذلك غرابة ونحن نعلم ان الطبيعة ميالة الى الجمع بين النقيضين والفرنسيين يقولون Les extrêmes se touchent اي الطرفان يلتقيان

تعرفت وانا في برن عاصمة سويسرا بآنسة حوت قسطاً كبيراً من صفات الشرقيين والغربيين معاً فكانت تستطيع فهم الموسيقى الغربية والشرقية الامر الذي يكاد يستحيل على اوربي واطلعتني على بعض قصائد نظمتها فاذا فيها روح عربية بلسان المعاني فان خيالها لا يعرف حداً سوى اللانهاية والروح التي تصورت عوج بن عناق يمد يده الى اسفل فيصطاد السمكة

من اعماق البحر ويعدها الى اعلى فيشويها في قرص الشمس في نفس الروح التي كانت تملى عليها اشعارها. حدثتني هذه الفتاة فقالت ابي سويسري المانى وامي عربية من قبيلة اولاد نايل من عرب الصحراء الافريقية تزوج بها في الجزائر وبعد ان بلغت الخامسة من عمري توفيت امي فلم يستطع والدي ان يعيش بدونها ومات بعدها بضعة اشهر وانا وان كنت لا اعرف العربية ولكني احب الصحراء وقد زرت مصر وضربت في صحرائها على الجمال ورأيت ابا الهول في ليلة قمراء وانا وحدي فلم اتمالك مخاطبته بصوت مسموع أسائله عما رأت عيناه الشاخصتان الى الابدية ويكتنه قلبه الصخري من اسرار الدهر

فمن يقول ان ذلك الجذع الذي نبت في جبال الالب وتلك الزهرة التي ترعرعت في الصحراء لم يكونا شجرة واحدة اثمرت ثمرة صالحة

(٢) نظرة تاريخية

كان قدماء المصريين كغيرهم من الامم يعتقدون بان لجنسهم مزايا على بقية الخلق تجعلهم يزدرون غيرهم من شعوب الارض وينظرون اليهم كشيء نجس فرغما عن الخدم الجليلة التي اداها يوسف الصديق للمصريين اذ خلصهم من الجوع سبع سنوات بحسن تدبيره ورغما عن اعترافهم بفضله وتوليته منصباً رفيعاً كالمنصب الذي كان يتولاه لم يتنازلوا لان يسمحوا له ان يجلس معهم على مائدة طعامهم لاعتبارهم نجساً . ولما نما اليهود صاروا امة قوية وتغلبوا على ارض كنعان احتقروا جميع الشعوب وحسبوهم نجسين كما كان يحسبهم المصريون من قبل واطلقوا على هذه الشعوب الغريبة كلة امم وكانوا يعيرون افرادها بكلمة (يا اغلف) وهذا منتهى الاحتقار عند اليهود . وهذا النوع من احتقار الاجانب كان شعار كل الامم القديمة لا يزال الصيني الى اليوم يحتقر الاوربي ويقول ان شعره الاشقر كشعر الشياطين وان لحيته الطويلة تشبه لحية القرود

غير انه كلما اغرقت الامم في المدنية خففت من كبريائها وعرفت انها ما هي الا بشر مثل غيرها . فلذا لا يفكر اليوم احد في المعارضة في زواج رجل جرماني بامرأة لابلية او رجل سلافي بامرأة جرمانية وبالعكس ما دامت هذه الامم في درجة تكاد تكون واحدة من الرقي جسماً وعقلاً حسب اصول علم الانثروبولوجيا اي من الجنس الابيض . ولكنك تجدهم يعارضون بكل قواهم في تزاوج جنسهم بالجنس الاصفر او الاسود باعتبار ان هذين الجنسين ادنى من الجنس الابيض في المراتب الانثروبولوجية . فالصيني الذي يتزوج بامريكية يكون نسله منها ارقى منه واحط منها فيكون هو الرابح وهي الخاسرة . اي ان الجنس

الابيض يخشى الامتزاج بالاجناس التي هي ادنى منهُ لئلاَّ يكون نسلهُ احط منهُ بينما تجد الاصفر والاسود يريان في امتزاجهم بالجنس الابيض رقيًّا لنسلهما. اما مركز الشعوب التي يسمونها بالملونة كالهندي والمصري فواقع بين الاثنين اي ان الاوربي لا يعارض معارضة شديدة في التزاوج بها ولكنهُ لا يعتبر نفسهُ الرابح من هذا التزوج

استطاع قدماء المصريين ان يحفظوا انفسهم من الاختلاط بالاجانب حتى اعتناقهم المسيحية التي ساوت بين جميع الشعوب وعلَّمت اليهود ان كل امم الارض مختارة لان تكون شعباً للرب وان الله سبحانهُ وتعالى لا يحابي للاجناس . وقد كانت مصر في ذلك الحين محكومة بالرومان الذين اعتنقوا المسيحية ايضاً فلم يكن هناك مانع من تزاوج الامة المحكومة بالحاكمة فاختلط المصريون بالرومان واليونان الذين كانوا قاطنين مصر في ذلك الحين واعتنقوا المسيحية ايضاً وتنازلوا عن اعتقادهم القديم بان لجنسهم مزايا خاصة به تجعلهم ارفع من ان يختلطوا بالامم الاخرى وبذلك زرعت العيون الزرقاء والشعر الاشقر في دم المصريين فاصبحت تجد في العائلة الواحدة أخوين أحدهما ذو وجه مصري قديم لا تفرقهُ عن الاشكال المنقوشة على جدران المعابد والآخر بعيون فاتحة وشعر اشقر ووجه لا تفرقهُ عن وجوه الاوربيين الساكنين بيننا الآن وان كانت شمسنا مع الوقت تلوحهُ حتى يصير اسمر لا يختلف كثيراً عن لون وجه اخيهِ الآخر

الاَّ انهُ بدخول الاسلام مصر وطرد الرومان منها انقطع المصريون الذين بقوا على دينهم عن سائر الشعوب المسيحية نحو ثلاثة عشر قرناً حتى الربع الاخير من القرن الماضي وكل هذه المدة لم يتزاوجوا لا بالعرب الفاتحين ولا باخوانهم الذين اعتنقوا الاسلام وذلك لاختلاف الدين فظلوا طول هذه المدة لا يتزاوجون الاَّ بينهم لعدم تمكنهم من الاختلاط بالمسيحيين الاجانب الى ان جاء اليوم الذي دخل فيهِ الاجانب المسيحيون ليتاجروا معنا ويزاحمونا في بلادنا فاذا بنا قد نسينا اننا اختلطنا بهم يوماً ما وفي أوردتنا اكثر من نقطة من دمهم فرجعنا الى انفتنا التي كانت لنا من عهد وثيتنا غير انا وضعناها في قالب حديث يوافق مسيحيتنا فانزل من لا يزالون منا يعيشون في عصر التوراة انفسهم منزلة اليهود واعتبروا انفسهم شعب الرب واطلقوا على اخوانهم في الدين لفظة الامم وهربوا من الاختلاط بهم هروب السليم من الاجرب

امين حنا نسيم
دكتور في الطب

(ستأتي البقية)